

الفصحى لغة القرآن

لغة فكر عالمي لنمو سبعمائة مليون مسلم جغرافيا ويمتد اربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث

الأستاذ أنور الجندي (القاهرة)

ان طرح القضية على هذا النحو يمكن ان يكون صحيحا في اي بلد من بلاد العالم وفي مواجهة اي لغة ولكنه يصبح عسيرا جدا حين يطرح بالنسبة للغة العربية . ولو لم ترتبط اللغة العربية بالقرآن والاسلام لكان يمكن ان يكون هذا الكلام مقبولا .

اما وقد انزل القرآن منذ اربعة عشر قرنا باللغة العربية فانشأ عالم الاسلام الفكري والاجتماعي والديني فقد اصبح للغة العربية وضع مختلف لا شبيه له في اي لغة اخرى . ولم يعد للعرب وحدهم حق التصرف في اللغة العربية . ولم تعد اللغة العربية لغة اقليمية تخص قطرا ، بل لم تعد الامة العربية نفسها مطلقة الارادة في التصرف بها .

هذه هي الحقيقة التي واجه بها المفكرون المسلمون منذ أكثر من ثمانين عاما تلك المحاولة التي قام بها ولكوكس في مصر وماسينون في الشام وكولان في المغرب ، ثم تابعهم بعد ذلك سلامه موسى والخوري مارون غصن وكثيرون .

ان اخطر ما تمثل اللغة العربية هو ان قارئها اليوم في العقد الثامن من القرن العشرين يستطيع ان يقرأ ويفهم ما كتب بها منذ القرن الخامس الميلادي (أي ما كتب قبل نزول الاسلام بأكثر من نصف قرن) .

ان التاريخ ليذكر ذلك الجهاد المتصل السذي حمل لواءه رجال أمثال : مصطفى صادق الرافعي ، ومحب الدين الخطيب ، وأحمد زكي ناشا الملقب بشيخ العروبة ، وعبد العزيز جاويش ، وعلي يوسف ، والدكتور محمد محمد حسين ، وأحمد الحوفسي ، وغيرهم في سبيل مقاومة الهجوم على اللغة العربية وانتقاصها ، والحملة عليها طوال تاريخ طويل يمتد الآن أكثر من خمسين عاما من خلال حملات المستشرقين والمبشرين ، ومن خلال مقررات حملها وزراء في عهد الحماية البريطانية ودعوات في الصحف وبعض الجامعات من أجل تجزئة مفهوم اللغة العربية الاصيل المتكامل ، ومحاولة لتصوير اللغة العربية على انها لغة « أمة » ومن حق هذه الامة التصرف فيها .

تلك هي القضية : لقد حاول الاستعمار والتفريب ان يطرح شبهة جزئية وجرت الاقلام في سبيل دعمها واقناع الناس بها ، ان اللغة العربية لغة أمة هي الامة العربية وان كل قطر من شأنه ان يكتب لغة ، وان هذا الامر يستدعي كل بلد ان يتناول هذه اللغة على النحو الذي يرضاه ويراها محققا هذه الغاية .

وكان هذا الاتجاه في طرح القضية يحمل طابعا خطيرا من التمويه والتزييف والتجاوز .

أي ان ترانا حافلا قام في خلال هذه الفترة كلها – واعظمه ما جاء بعد الاسلام بالطبع – هذا التراث هو ملك حر لقراء اللغة العربية يلجون به العاما صحيحا دون أن يكونوا في حاجة الى مراجع أو معاجم ويفهمونه فهما صحيحا . وهذا ما لم يتيسر بالتقطع لاي لغة في العالم كله اليوم ، وذلك أن أي لغة قائمة الآن بخلاف اللغة العربية لا يستطيع قراؤها أن يفهموا من تراثها الا ما لا يجاوز الثلاثة قرون ، اما ما يبعد عن ذلك فانهم يلتمسون لفهمه المعاجم . ان مرد ذلك ثبات اللغة العربية الذي لم يتح لأي لغة أخرى ، ومرجع هذا الثبات الى نزول القرآن بها وارتباطها به على النحو الذي انشأ هذه الثروة الضخمة من العلم والتراث والتأليف .

ومن هنا أصبح للغة العربية خاصية متميزة لا تستطيع اللغات الأخرى ان تشاركها فيها ولا تستطيع هي ان تجاوزها : تلك هي انها لغة أمة ولغة فكر ودين . فهي لغة الأمة العربية التي يبلغ تعدادها أكثر من مائة مليون يتكلمون بها وبها يتعاملون ، وهي في الوقت نفسه لغة المسلمين جميعا : لغة فكرهم ودينهم وصلاتهم ولغة ذلك الرباط الذي يجمعهم بالتشريع والمعقيدة جميعا وهو القرآن الكريم .

ومن هنا كان الخطر الوحيد الذي يواجه أهل اللغة العربية هو أن يسقطوا عن مستأى أسلوب القرآن ، ليصبح أسلوبهم قاصرا عن فهمه وتعمقه ، لأن ذلك من شأنه أن يفصل بينهم وبينه ، وذلك مما تحاوله القوى الهدامة المعادية للعرب والاسلام ، والتي تدعوهم الى ما يسمى باللغات الوسطى أو تقرييب الفصحى من العامية .

وامانا القرآن وهو المقياس الثابت وعلينا في كل حركة من حركات العمل أن نتقرب منه ونلتقي به ، فعلى العامية أن تقترب من الفصحى وليس على الفصحى أن تنزل الى العامية .

والتعليم كليل اذا اتسعت آفاقه ان يقلل من الحاجة الى العامية وان يقرب الاتصال بالفصحى .

والذوق العربي كله متصل بالفصاحة ، وفهم الفكر الاسلامي والثقافة العربية متصل بهذا المستوى من الاسلوب والبيان .

لقد كان لارتباط اللغة العربية بالقرآن الذي نزل بها آثاره البعيدة المدى ، فلقد اتصلت اللغة العربية التي كانت تعيش على حدود الجزيرة العربية الى آفاق

العالم كله وحملت معها ثقافة القرآن ، وحصيلة العلوم ، ونظريات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وحملت معها المنهج العلمي التجريبي . فالقرآن هو الذي اعطاها هذه المكانة وفتح امامها هذه الافاق ، فهي بوصفها لغة الاسلام قد حملت رسالة ضخمة الى العالم كله والى البشرية : هي رسالة التوحيد .

ولقد وهب القرآن اللغة العربية حصيلة ضخمة من المعطيات الفكرية والاجتماعية من خلال رسالته العالمية التي اتخذت من الفاظ اللغة العربية المتناثرة تشكيلا جديدا طرح على البشرية منهجا شاملا من الحياة والفكر والنظر في الكون وبسواء المجتمعات والأخلاق .

وكان هذا هو مصدر دهنه الناس عند نزول القرآن ، فقد كانت هذه الالفاظ معروفة لهم بأعيانها ، ولكن الاعجاز كان متمثلا في هذا التشكيل الذي تشكلت به فكرا وأداء ، في هذه القيم الجديدة التي قدمها ، وهذه الصور المتعددة ، وهذه الروعة في أسلوب الاقناع والحوار ، وهذه المناهج المتعددة في مخاطبة القلب والعقل .

ومعنى هذا أن ثروة اللغة العربية انما ترجع في تشكلها القرآني الذي اعطاها هذه القوة ، وفي نفس الوقت اعطاها الاسلام هذا الاتساع والذيع .

ومن هنا قد أصبحت صلة اللغة العربية بالقرآن والاسلام صلة عضوية تمثل التجربة الاولى والأخيرة من نوعها في صلة رسالة السماء بلغة من اللغات ، ولا ريب أن هذا المفهوم له اثره البعيد في امتلاك المسلمين جميعا لهذه اللغة ، وما يتصل بهذا من خطأ القول بأن لقطر ما أو شعب ما ، القدرة على التصرف في اللغة العربية .

ومن الحق أن يقال ان اللغة العربية هي لغة فكر عالمي يضم سبعمائة مليون من المسلمين جغرافيا ويمتد أربعة عشر قرنا في التاريخ والتراث .

(2)

هذه الحقائق كانت واضحة في اذهان اولئك المنافحين عن اللغة العربية في كل عصر : نراه واضحا في عبارات مصطفى صادق الرافعي قبل خمسين عاما حين يعرض للقول بأن العربية لغة أمة ام لغة فكر :

« ان في العربية سرا خالدا هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب ان يؤدي على وجهه العربي الصحيح ، وبحكم منطقا واعرابا بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيج بالكلمة عن وجهها وبالجملة عن مؤادها وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ، ثم هذا المعنى الاسلامي (الدين) المبني على الغنبة والمفقود على انقراض الامم ، والقيم على الفطره الانسانية حيث توزعت وأيسن استقرت ، فالامر أكبر من أن يؤثر فيه سورة حمق أو تأخذ منه كلمة جهل . »

(4)

وليس ادل على قوة اللغة العربية من عبارة ارنتست رينان ، في كتابه تاريخ اللغات السامية :

« ان من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذي بدء ، فبدأت فجأة في غاية الكمال ، سلسلة اي سلاسة ، غنية اي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها حتى يومنا هذا أي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول امرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الاندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يرجعوا سؤاوتهم بالعربية ليفهمها النصارى . »

من أغرب المدهشات ان تثبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند امة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها .

وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا في حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغيير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها في كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، ولا تكاد نعلم من شأنها ولا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تباري ولا نعلم شيئا عن هذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة . »

ومن عجب ان يكون هذا رأي اهل العرب فيها ثم يقوم من ابنائها من ينتقص من قدرها ويلبسوا الى العاميات ويحاول ان ينتزعها من مكانتها العالية .

« اما القرآن جنسية لغوية تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم اليها وأوجبها عليهم لما اضطرد التاريخ الاسلامي ولا تراخت به الأيام الى ما شاء الله ولما تماسكت اجزاء هذه الامة ولا استقلت بها الوحدة الاسلامية ثم تلاحمت اسباب كثيرة بالمسلمين ونضب بانهم ولم يبق الا ان تستلحقهم الشعوب وتستلحقهم الامم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية فلا يتبين من آثارهم بعد ذلك الا ما يثبت عن طريق الماء اذا انساب الجدول في المحيط » (1)

(3)

ويرد الكثيرون على شبهة المقارنة بين اللغة العربية واللغة اللاتينية : بقول الأب صالحاني :

ان اللاتينية ماتت كلفة للشعب بموت الدولة الرومانية وبقيت كلفة للكنيسة والعلماء . اما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الامكنة والازمنة والعناصر ، ولم تكن اللاتينية لغتته الاصلية وانما كانت اخرى : كالسليزية السكسونية والجرمانية الهندية ، وامتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادي الزمان وتنوع الكتابة وفتح المدارس وتآليف الكتب ، وساعد الشعوب في ذلك انفرادهم في اصقاع متناحية ودول مستقلة، فآين كل ذلك

(1) البيان م 1913

(2) م المشرق ص 130 م 23 سنة 1965 .